منهج يوهان فوك في ضوء المدرسة الاستشراقيّة الألمانيّة
(دراسة نقديّة مقارنة)

إسراء كريم عبد الامير الكشوان[١]

فاطمه دست رنج[٢]

الملخّص

تتصدّى هذه الورقة البحثيّة لمهمّة تفكيك وتقويم الأسس المعرفيّة التي شيّد عليها المستشرق الألماني يوهان فوك مقاربته لعلوم القرآن الكريم، متّخذة من المنهج النقديّ المقارن سبيلاً لسبر أغوار التباين الإبستمولوجي الحادّ بين العقلانية النقدية الغربية وبين الرؤية التأسيسية الإسلاميّة. لقد سعى فوك، متدثّرًا بصرامة الفيلولوجيا الألمانيّة ونزعتها التاريخانيّة، إلى إخضاع النص القرآنيّ لأدوات التحليل البشري المحض، مجرِّدًا إيّاه من تعاليه الوحياني، ليقرأه كوثيقة سوسيولوجية تتشكّل عبر تراكمات لغوية وتفاعلات بيئيّة. تقارب الدراسة هذه الإشكالية عبر وضع أدوات فوك التحليليّة في ميزان النقد العلميّ الدقيق، مقارنة إيّاها بالمنظومة المعرفية الإسلاميّة،

[١]- باحثة في جامعة أراك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أراك – إيران.

[٢]- باحثة في جامعة أراك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أراك – إيران.

وتحديدًا الرؤية الإمامية التي تتّخذ من التواتر القطعيّ والوحدة العضوية للنصّ معيارًا حاكمًا. وتكشف النتائج عن مفارقة جوهرية تتمثّل في أن براعة فوك في توظيف التقنيات اللغوية وتتبع التطوّر التاريخي للمفردات قد أُجهضت بفعل ارتهانه المسبق للفلسفة الوضعية التي تقصي الميتافيزيقا، مما أوقعه في سلسلة من التعميمات والاستنتاجات التجزيئيّة التي تعجز عن استيعاب النسق القرآني المتكامل. وتخلص الدراسة إلى ضرورة تأسيس وعي نقدي إسلامي معاصر يتجاوز عقدة الرفض المطلق أو القبول الساذج، بحيث يكون قادرًا على فرز الأدوات الاستشراقية واستثمار الصالح منها ضمن إطار عقديّ محكَم لا يُخلّ بقدسيّة الوحي.

الكلمات المفتاحية: يوهان فوك، المنهج النقدي المقارن، الإبستمولوجيا الاستشراقيّة، الفيلولوجيا الألمانية، علوم القرآن.

المقدّمة

شهد الربع الأوّل من القرن العشرين تحوّلاً مفصليًّا في بنية العقل الاستشراقيّ المتصدّي لدراسة التراث الإسلاميّ، حيث تراجعت تدريجيًّا تلاوين السجال اللاهوتي الفجّ، والمقاربات الكولونيالية المباشرة، لتُخلي الساحة لتيّار أكثر تركيبًا ودهاءً يتسلّح بأدوات الفيلولوجيا الصارمة والمناهج التاريخية النقدية. وفي خضمّ هذا المخاض المعرفيّ الذي أعاد تشكيل جغرافيا الدراسات الشرقية في أوروبا، برز المستشرق الألماني يوهان فوك كعلامة فارقة تمثّل مرحلة نضوج الاستشراق التقني المتأخّر. لم يركن فوك إلى استنساخ أطروحات أسلافه بصورتها التقليدية، بل عمد إلى نحت مسار تحليليّ بالغ التعقيد يزاوج بين الحفر اللغويّ الدقيق في جذور المفردات السامية وبين النزعة التاريخانيّة التي تسعى لربط كل ظاهرة نصّية بسياق اجتماعي أو سياسي محدّد. لقد نظر فوك إلى القرآن الكريم وعلومه عبر عدسة تفكيكيّة تُقصي الغيب تمامًا، وتُحيل النص المقدّس إلى بناء بشريّ تراكميّ تتنازعه لهجات القبائل وتصيغه ارتدادات البيئة الثقافيّة لأواخر العصر القديم. إن هذا الانتقال الاستشراقيّ نحو «التقنية الفيلولوجية» خلق وهمًا بالموضوعيّة الأكاديميّة المطلقة، وهو وهم

يقتضي تفكيكًا نقديًّا حازمًا لا يكتفي بقراءة سطح المعطيات، بل يغوص من أجل اختبار الجذور الفلسفية التي تغذي تلك الاستنتاجات، مقارنًا إيّاها بالبناء المعرفي الرصين الذي شيّده العقل الإسلامي عبر قرون من التحقيق والتوثيق.

مشكلة البحث

تتجسّد المعضلة المحوريّة لهذه الدراسة في حالة الاستقطاب والصدام الإبستمولوجي العنيف بين العقلانية النقدية الغربيّة التي يتّخذها يوهان فوك مرجعيّة عليا لا تقبل النقض، وبين الرؤية التأسيسيّة الإسلاميّة التي تلتحم فيها حقائق التاريخ بأنوار الوحي. تنبثق الإشكالية من إصرار المنهج الفوكي على إقحام النصّ القرآنيّ الخاتم داخل قوالب التطوّر التاريخي المحض، مفترضًا أن النصّ خضع لسيرورة من التعديل والارتباك قبل أن يستقرّ في مدوّنته النهائية، وهو افتراض يصطدم جذريًّا مع مبدأ «التواتر القطعي» وحجّيّة النقل المتّصل الذي يمثّل الركيزة الفولاذية لعلوم القرآن في الرؤية الإسلاميّة عمومًا، والإمامية خصوصًا. تتفرّع عن هذه المشكلة الكبرى تساؤلات نقدية شائكة: كيف يمكن الموازنة بين الصرامة اللغويّة التي أبداها فوك في تتبّع المفردات وبين تعسّفه الفلسفي في إنكار القصدية الإلهيّة؟ وما هي التداعيات العلمية لإسقاط مناهج نقد الكتاب المقدس التوراتي على القرآن الكريم؟ وكيف نستطيع نحن، كباحثين منتمين إلى الفضاء الإسلامي، أن نبلور خطابًا نقديًّا يفكّك أدوات فوك الاستشراقية ليفرز الصالح منها من الطالح، متجاوزين حالة الرفض الانفعالي نحو تأسيس اشتباك منهجي يقارع الحجّة بالحجّة ويفضح هشاشة المرتكزات الوضعيّة عند ملامستها للنصوص ذات الطبيعة الوحيانيّة.

أهداف البحث

ترمي هذه المطارحة الأكاديمية المعمقة إلى تحقيق جملة من المقاصد العلمية تتضافر لتأسيس وعي نقدي بديل، وتتبلور هذه الأهداف في السعي نحو تشريح الأدوات المنهجية التي استند إليها يوهان فوك (كالفيلولوجيا والمقاربة التاريخيّة)

وتقويم كفاءتها وإخفاقاتها عند التطبيق المباشر على الظاهرة القرآنية. كما تهدف الدراسة إلى عقد موازنة علميّة دقيقة بين نظريات فوك وبين طروحات كبار المستشرقين أمثال نولدكه وجولدتسيهر، لتحديد التموضع الدقيق لفوك داخل المدرسة الألمانيّة وكشف المساحات التي جدّد فيها أو تلك التي أعاد إنتاج أخطاء سلفه فيها. وإلى جانب ذلك، يسعى البحث إلى تفكيك الفلسفة الوضعيّة المضمرة في نصوص فوك، ومحاكمتها إبستمولوجيًّا أمام متانة النظام المعرفي الإسلامي الإمامي، وصولاً إلى استخلاص رؤية تقويمية عادلة تبرز مواطن الخلل والتناقض في المنهج الاستشراقي، وفي الوقت ذاته تعترف بالومضات التحليلية الدقيقة التي يمكن للعقل المسلم المعاصر أن يوظّفها لخدمة النص الشريف.

أهميّة البحث

تبرز القيمة الاستثنائية لهذا الجهد العلمي من طبيعته «النقدية المقارنة» التي تحرّر الخطاب الإسلامي المعاصر من عقدة الدونيّة المعرفية أو الانغلاق الدفاعيّ السلبيّ. إن الاكتفاء برجم الاستشراق بالاتّهامات دون النزول إلى معترك التحليل الإبستمولوجي قد أورث الساحة الأكاديمية الإسلاميّة خللاً منهجيًا لا يليق بحيوية التراث. من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة لتمنح الباحث المسلم المعاصر عدسة مقرّبة تمكّنه من اختراق الخطاب الفيلولوجي الألمانيّ المعقّد، وفهم الكيفية التي يتوسّل بها العقل الغربيّ باللغة والتاريخ لنفي القداسة عن القرآن. إن النقد العميق لمنهج يوهان فوك يزوّد الباحثين بأدوات تفكيكيّة لا غنى عنها في مقارعة الاستشراق الجديد، ويؤسّس لقاعدة صلبة تتيح استعارة التقنيات اللسانيّة والتاريخيّة الحديثة وفصلها عن حمولاتها العلمانيّة والفلسفيّة، مما يفضي في نهاية المطاف إلى إثراء حقل علوم القرآن بمقاربات متجدّدة تجمع بين عبقرية التراث وتطوّر آليّات البحث الإنساني الحديث.

منهج البحث

استجابة لطبيعة المادة المدروسة وتعقيداتها الفلسفية تم اعتماد «المنهج النقدي المقارن» كآلية وحيدة ومحكمة لتأطير مسارات هذه الورقة البحثية. ينهض هذا المنهج بوظيفة مزدوجة؛ فهو من جهة يتكفّل بالغوص التحليليّ في نصوص يوهان فوك لتفكيك آليّاته واستخراج مسلّماته المضمَرة ومحاكمة تماسكها المنطقي الداخلي، ومن جهة أخرى يمارس مقارنة صارمة تضع هذه الاستنتاجات الاستشراقيّة وجهًا لوجه أمام المقرّرات المعرفيّة للإسلام بمدرسته التأسيسيّة، بغية كشف الفوارق الجوهرية في المنطلقات والمآلات، وإبراز تفوّق الرؤية الشمولية الإسلاميّة في التعاطي مع نص شديد الفرادة والتعقيد كالقرآن الكريم.

خطّة البحث

لضمان انسيابية الأفكار وإحكام البناء المعرفي، انتظمت هذه الدراسة عبر خمسة مباحث رئيسة تتعاضد لتشكيل الصورة الكلية للبحث، وهي موزّعة بإحكام على النحو التالي:

المبحث الأوّل: تقويم الأدوات المنهجية لفوك بين الفيلولوجيا والنزعة التاريخانيّة

المبحث الثاني: فوك في ميزان الاستشراق: مقارنة مع نولدكه وجولدتسيهر.

المبحث الثالث: الصدام الإبستمولوجي بين العقلانيّة النقديّة الغربيّة والرؤية الإسلاميّة الإمامية.

المبحث الرابع: التقويم الموضوعي لمنهج فوك: استخلاص مزالق الضعف ومواطن القوة.

المبحث الخامس: آفاق الدراسات القرآنيّة: تجاوز السجال نحو حواريّة معرفيّة منتجة.

المبحث الأوّل: تقويم الأدوات المنهجية لفوك بين الفيلولوجيا والنزعة التاريخانيّة

يستوجب الولوج إلى العقليّة التحليليّة التي حكمت مقاربات يوهان فوك للنص القرآني وقوفًا نقديًا صارمًا عند الأداتين المركزيتين اللتين شكلتا عماد مشروعه الاستشراقي؛ وهما «الفيلولوجيا» (فقه اللغة المقارن) و«النزعة التاريخانيّة» (**Historicism**). لقد تعاطى فوك مع المدوّنة القرآنيّة من منظور يعلي من شأن التحليل اللغوي المجهري، حيث اعتبر أن تفكيك البنية التركيبية للآيات وتتبّع الجذور الاشتقاقية للمفردات في حوض اللغات السامية يمثّل المدخل الأوحد والموثوق لاستنطاق النص وكشف ملابسات تشكّله. غير أن هذا الانغماس الفيلولوجي لم يكن بريئًا من التوظيف الأيديولوجي أو الفلسفيّ؛ إذ ارتبط بنيويًّا بنزعة تاريخانيّة متطرّفة تفترض سلفًا أنّ أيّ نصّ، مهما تدثّر برداء القداسة، ليس سوى إفراز حتميّ لتفاعلات البيئة السوسيولوجية وتراكمات المعرفة البشرية في حقبة زمنية محدّدة. بناءً على هذه المصادرة الإبستمولوجية، عمد فوك إلى تجريد النص القرآني من طابعه الميتافيزيقي وتعاليه الوحياني، ليحيله إلى مجرّد «وثيقة تاريخية» تتنفس هواء القرن السابع الميلادي وتتغذّى على مخرجات الجدل اللاهوتي الذي ساد شبه الجزيرة العربية ومحيطها. إن هذا الاختزال المنهجي يُسقط عمدًا حقيقة أن القرآن الكريم يؤسّس كينونته بوصفه كلام الله الأزلي الذي يتدخّل في التاريخ ليوجّهه ويقوّمه، لا ليكون مجرّد انعكاس سلبي لانفعالاته وصراعاته. فالنزعة التاريخانية عند فوك تصادر «قصدية الشارع» وتستبدلها بـ«حتمية البيئة»، مما يوقع الباحث في فخّ التعسّف عند تفسير الظواهر النصّيّة الفريدة، كالتكرار البلاغي أو الالتفات أو الانتقال المفاجئ بين المضامين، حيث فسّرها فوك بوصفها ارتباكات في التدوين أو طبقات نصية متراكمة دُمجت لاحقًا، متجاهلاً البنية العضويّة والنسق البياني المعجز الذي يتجاوز قدرات البيئة الشفهية البدائية التي يفترضها لتلك الحقبة. ولتعميق هذا النقد الإبستمولوجي وكشف حدود المقاربة الفيلولوجيّة-التاريخيّة الغربيّة، تبرز الأهميّة القصوى لاستدعاء الطرح النقدي الموازي الذي يقدّمه الأكاديمي غابرييل سعيد رينولدز (**Gabriel**

Said Reynolds) في سفره المحوري «القرآن في سياقه التاريخي» (**The Qur'an in its Historical Context**). فعلى الرغم من انتماء رينولدز للفضاء الأكاديمي الغربي، إلاّ أنه يوجّه نقدًا مبطّنًا وعميقًا للمنهجية التي اتّبعها أسلافه من أمثال فوك. يوضح رينولدز أن المحاولات الاستشراقية المحمومة لفرض «سياق تاريخي» محدّد على القرآن، عبر البحث المهووس عن جذور سريانية أو آرامية أو مسيحية متأخّرة للمفردات القرآنية، غالبًا ما تقود إلى نتائج افتراضية تفتقر إلى الصلابة العلميّة[١]. يؤكّد رينولدز أن القرآن الكريم يمتلك صوتًا استدلاليًا وحجاجيًا خاصًّا به، وأنه يعيد صياغة المفاهيم السابقة ضمن إطار لاهوتيّ جديد ومستقلّ تمامًا. إن توظيف مقاربة رينولدز هنا يفضح العوار المنهجي في أدوات فوك؛ فبدلاً من أن تُستخدم الفيلولوجيا لاكتشاف «المعنى القرآني الأصيل»، استخدمها فوك كأداة اختزاليّة لإثبات فرضيّة «الاقتراض الثقافي». لقد تجاهل فوك، في غمرة بحثه عن الأصول اللغوية، أن اشتراك اللغات السامية في وعاء معجمي واحد لا يقتضي حتمية التبعيّة العقديّة أو النقل الحرفي للمضامين، وأن النصّ الإلهيّ حين يوظّف مفردة شائعة، فإنّه يشحنها بظلال دلاليّة وتوجيهات تشريعية تنتزعها من سياقها المادي القديم لتدرجها في نسق إيماني كوني. إن تطبيق أداة رينولدز النقدية يثبت أن استغراق الاستشراق الكلاسيكي في قراءة القرآن بوصفه «نصًّا تاريخيًا» يجعله أسير التخمينات المتضاربة، ويفقِده القدرة على فهم التماسك الداخلي للنص وسلطته المرجعية التي هيمنت على مسار حضارة بأكملها، مما يؤكّد أن أدوات فوك، رغم صرامتها الظاهرية، بقيت قاصرة وعاجزة عن الإحاطة بظاهرة تتجاوز أبعادها حدود المختبر اللغويّ الغربيّ.

المبحث الثاني: فوك في ميزان الاستشراق: مقارنة مع نولدكه وجولدتسيهر

لا يمكن استيعاب التموضع الدقيق ليوهان فوك داخل الخريطة المعرفية للاستشراق دون إخضاع مشروعه لمقارنة تشريحيّة قاسية مع الأقطاب المؤسّسين

[1]- Reynolds, Gabriel Said (Ed.), The Qur'an in its Historical Context, 2008.

للمدرسة الألمانيّة، وعلى رأسهم تيودور نولدكه وإغناتس جولدتسيهر. يمثّل فوك الجيل الأكاديمي الذي ورث التركة الكلاسيكية الثقيلة، لكنّه لم يكن مجرّد ناقل سلبيّ لها، بل كان ممارسًا لعملية تركيب منهجيّ جمعت بين الشغف الفيلولوجي والنزعة التفكيكيّة للتراث. حين نقارن فوك بنولدكه، نجد أن الأخير قد أسّس في كتابه الخالد «تاريخ القرآن» لهيكل كرونولوجي يعتمد على تطور الأسلوب القرآني (المكي والمدنيّ) لتأريخ النصّ، معتبراً القرآن وثيقة تتطوّر خطّيًّا مع مسار الدعوة النبوية. لقد تلقّف فوك هذا التأسيس الكرونولوجي، ولكنّه غاص به نحو مستويات ميكرو-تحليلية أشدّ تعقيدًا؛ فبينما اهتمّ نولدكه بالسِّمات العامة للنصّ وطوّل السور وإيقاعها، اتّجه فوك نحو تشريح البنية النحوية، والروابط اللفظية الدقيقة، والانتقالات المفاجئة داخل السورة الواحدة، محاولاً استنباط ما أسماه «الطبقات النصيّة المتراكمة» التي تفترض اندماج مقاطع مختلفة زمنيًا في قالب سورة واحدة إبان عملية الجمع. هذا التحوّل من «التأريخ الماكرو» عند نولدكه إلى «التفكيك الميكرو» عند فوك، لم يخرج الأخير من عباءة أستاذه الفلسفيّة، بل رسّخ الفرضية ذاتها القائلة ببشرية النص وخضوعه لاجتهادات تدوينية لاحقة، متجاوزاً الإجماع الإسلامي على توقيفية الترتيب القرآني وآليّاته النقلية المتواترة.

أما على صعيد التعامل مع التراث التفسيريّ والحديثيّ، فقد وجد فوك ضالّته في المنهجية التدميرية التي أرسى دعائمها إغناتس جولدتسيهر. لقد انطلق جولدتسيهر من فرضيّة راديكالية تعتبر مجمل التراث الروائي الإسلاميّ (الحديث والتفسير) ليس انعكاسًا للعهد النبوي، بل هو إسقاطات متأخّرة فرضتها الصراعات الأمويّة والعباسية، والتطاحنات الكلامية بين الفرق. التقط فوك هذه النزعة الشكوكيّة المطلقة ووظّفها لتجريد المصادر الإسلاميّة من أهليّتها كأدوات موثوقة لفهم القرآن، معتبراً إيّاها مجرّد محاولات «تبريريّة» أو «تأسيسيّة» لسلطات لاحقة. بيد أن فوك تمايز عن جولدتسيهر بتطبيقه هذا التفكيك السوسيولوجيّ على «التطور الدلالي» للألفاظ القرآنية ذاتها، مدّعيًا أن المفاهيم الكبرى في القرآن لم تكن تمتلك دلالات مستقرّة، بل تمّت إعادة شحنها بمعانٍ جديدة تلبية لظروف المجتمع الإسلامي المتغيّر. إنّ

هذا التماهي المنهجي مع جولدتسيهر جعل فوك يقع في ذات العماء الإبستمولوجي الذي يقصي جهود مؤسّسات الجرح والتعديل وعلوم الرجال، مفترضًا سذاجة العقل التوثيقي الإسلامي وقابليّته العبثيّة للاختراق، وهو ما يتنافى مع الصرامة المنهجية التي حكمت قبول الأخبار والروايات في المدارس الإسلاميّة المتأصّلة. ولوضع هذا النسق الاستشراقي التشكيكي تحت مشرط النقد المعرفيّ الجذريّ، تبرز الضرورة الملحّة لتوظيف التحليل العميق الذي يقدّمه الباحث الأكاديمي هربرت بيرغ (**Herbert Berg**)[١] في سفره المهم «المنهج والنظرية في دراسة الأصول الإسلاميّة» (**Method and Theory in the Study of Islamic Origins**). يشنّ بيرغ هجومًا منهجيًّا لا هوادة فيه على الأسس التي بنى عليها الرعيل الأول من المستشرقين (وفي طليعتهم نولدكه وجولدتسيهر وشاخت، والذين يشكّلون المظلّة الفكريّة لفوك) نظريّاتهم حول نشأة الإسلام والنصّ القرآني. يفكّك بيرغ «العقلية الشكوكية» (**Skeptical Method**) التي هيمنت على هذه المدرسة، موضحًا أنها لا تنطلق من تفوّق علميّ موضوعي، بل من «استدلال دائري» مفرط في ذاتيته.

فالمستشرق يفترض سلفًا أن الإسناد الإسلامي مختلق، ثم يبحث في المتون عما يثبت هذا الاختلاق، متجاهلاً أيّ قرائن داخلية تدعم موثوقيّة النقل.

يشير بيرغ إلى أن هذا النهج التاريخي الغربي يقع في مغالطة معرفية كبرى حين يطالب بأدلّة قاطعة وفق معايير الحداثة الغربية لتوثيق نصوص تنتمي لبيئة أواخر العصر القديم، ثم عندما لا يجدها بالشكل الذي يتمنّاه، ينفي موثوقيّة النصّ بأسره لصالح نظريّات افتراضيّة هشّة ينسجها المستشرق من خياله الفيلولوجي. إن إدماج أطروحة بيرغ النقدية ينسف الشرعية الإبستمولوجية للتقاطعات بين فوك وأسلافه، ويثبت أن رفضهم للمنظومة التراثيّة الإسلاميّة لم يكن نتاج كشف علمي مبهر، بل كان ثمرة لمنهجية تعسّفية تفتقر إلى النزاهة في التعامل مع آليّات التوثيق الإسلامي المعقّدة، مما يفرغ نتائج فوك من محتواها اليقينيّ ويحيلها إلى مجرّد تأمّلات فلسفيّة تحلّق في فراغ من التحيّزات المسبقة.

[1]- Herbert Berg, The Development of Exegesis in Early Islam, The Authenticity of Muslim Literature from the Formative Period, 1st Edition, Routledge, London, 2000.

المبحث الثالث: الصدام الإبستمولوجي بين العقلانية النقديّة الغربيّة والرؤية الإسلاميّة الإماميّة

يتجلّى التباين الصارخ بين منهج يوهان فوك والمقاربة الإسلاميّة الإمامية في جوهره كصدام إبستمولوجي عميق يتجاوز حدود الاختلاف في توظيف الأدوات البحثية ليطال جذور الرؤية الفلسفيّة المعرفيّة المحدّدة لماهيّة النصّ الدينيّ ومصادر الحقيقة. ينطلق فوك، متوشّحًا بعباءة العقلانية النقديّة الغربيّة ذات الجذور الوضعيّة والماديّة، من مسلَّمة لا تقبل المساومة لديه، تفيد بأنّ النصّ القرآنيّ ليس سوى نتاج تاريخيّ لبيئة بشريّة، يخضع في تشكّله وانتقاله لنفس القوانين التطوّرية، والتشوّهات النقليّة، والمؤثّرات السوسيولوجيّة التي تحكم أيّ وثيقة أدبيّة أو تاريخية دنيويّة. هذه الرؤية الفوكية، التي تقصي البعد الوحيانيّ الميتافيزيقيّ إقصاءً تامًّا، تشرعن تفكيك النصّ وتجزئته وإعادة ترتيبه بناءً على فرضيّات التطوّر اللغوي والضغوط السياسية، متجاهلة بذلك السلطة المرجعيّة المطلقة للقرآن. في الجهة المقابلة تمامًا، تبرز الرؤية الإسلاميّة عمومًا، والمدرسة الإمامية الشيعية على وجه الخصوص، لتؤسّس مقاربتها على قاعدة «عصمة النص الإلهي» وثباته المطلق، محتكمة إلى مبدأ «التواتر القطعي» كحصن إبستمولوجي منيع يستحيل معه العبث بألفاظ القرآن أو بنيته التركيبيّة[١] فالتواتر، وفق المنظور الإمامي المعتمد عند أعلام كالسيِّد الخوئي والطباطبائي، ليس مجرّد تراكم كمّي لروايات نقليّة قابلة للاختراق والتشكيك كما يتوهّم العقل الاستشراقي، بل هو يقين عقليّ وواقعيّ ينبني على نقل الجماهير الغفيرة في كل طبقة زمنيّة، جيلاً بعد جيل، بحيث يحال عقلاً وعادة تواطؤهم على الكذب أو الخطأ، مما يجعل ثبوت القرآن الكريم استثناءً متجاوزًا للاحتمالات التاريخيّة الهشّة التي يبني عليها فوك استنتاجاته[٢]. في خضم هذا المعترك المعرفيّ، يعمد فوك إلى تسليط مبضع الشك على مسألة جمع القرآن وتدوينه في عهد الصحابة، مفترضًا أن

[١]- الكشوان، إسراء كريم عبد الأمير؛ دست رنج، فاطمة، منهج المستشرق يوهان فوك في دراسة علوم القرآن الكريم (دراسة تحليلية نقدية مقارنة).

[٢]- م. ن، ص١٤٤.

العملية شابها الكثير من الارتباك والتدخّلات البشرية التي أدّت إلى فقدان أجزاء أو تغيير مسارات دلاليّة معينة، متّكئًا في ذلك على التقاط روايات آحادية شاذّة أو ضعيفة السند تسرّبت إلى بعض المدوّنات الحديثيّة ليتّخذ منها قاعدة لنقض الإجماع المتواتر. هذا التوظيف الانتقائي للرواية يمثّل خرقًا صريحًا لقواعد النقد الحديثي الإسلامي الذي يعلي من قيمة السند ويمحّصه عبر «علم الرجال» و«الجرح والتعديل»، وهي أدوات يراها العقل الغربي مجرّد آليّات دفاعيّة، في حين تراها المدرسة الإمامية مصفاة علمية صارمة تمنع تسلّل الروايات الإسرائيلية أو الموضوعة التي استثمرها فوك لخدمة أطروحته التاريخانيّة. إن التشبّث الفوكي بـ«الاحتمال التاريخيّ» لزعزعة اليقين النصيّ يعكس عجز المنهجية الغربية عن استيعاب مفهوم «العناية الإلهية» المقترنة بالجهد البشري التوثيقيّ الدقيق (حفظ الصدور وحفظ السطور) الذي مورس منذ لحظة الوحي الأولى، وهو تكامل توثيقيّ فريد لا يوجد له نظير في تاريخ النصوص البشرية الأخرى، ويجعل من القراءة الاستشراقية قراءة خارجية منبتّة الصلة عن آليّات الضبط الداخلي التي حكمت مسيرة النص القرآني. ولتقويض هذه الافتراضات الاستشراقية التشكيكيّة التي تدّعي «سيولة النص» وعدم استقراره المبكر، يبرز الحضور المعرفي الصارم والعلمي الرصين الذي شيّده العالم والمفكّر البارز محمد مصطفى الأعظمي في موسوعته النقدية الفذّة «تاريخ النص القرآني: من الوحي إلى التدوين» **(The History of the Qur'anic Text: FromRevelation to Compilation)**. لا يكتفي الأعظمي في هذا السفر بالدفاع العاطفيّ، بل ينتقل للرد المنهجي الموثّق، مفكّكًا دعاوى السيولة والتحريف من خلال الغوص العميق في الميكانيزمات التوثيقية الدقيقة التي أسّس لها النبي محمّدﷺ عبر كتّاب الوحي والتنظيم المؤسّسي لحفظ القرآن فور نزوله. يقدّم الأعظمي أدلّة ماديّة لا تُدحض، تعتمد على فحص أقدم المخطوطات القرآنية المكتشفة ومقارنتها، ليثبت أن التباينات التي يضخّمها فوك وأضرابه لا تتعدّى اختلافات طفيفة في الرسم الإملائي أو القراءات الصوتية المأذون بها سلفًا[1]، ولا تمسّ جوهر النصّ أو بنيته العضوية بأيّ حال من

[1]- Al-Azami, Muhammad Mustafa, The History of the Qur'anic Text: From Revelation To Compilation, 2003.

الأحوال. إن استدعاء الأعظمي النقد الفيلولوجي الغربي نفسه وتوجيهه لضرب سرديات الاستشراق يكشف حجم التعسّف المعرفي والتحيّز المسبق في أطروحات يوهان فوك، ويثبت أن «التواتر» الإسلامي لم يكن مجرّد صياغة نظريّة متأخّرة، بل كان واقعًا توثيقيًّا ماديًّا وشفهيًّا متضافرًا تفوق دقّته كل معايير النقد النصي المطبّقة في الأكاديميا الغربية المعاصرة.

المبحث الرابع: التقويم الموضوعي لمنهج فوك: استخلاص مزالق الضعف ومواطن القوة

يتطلّب الاشتباك الأكاديمي الرصين مع مشروع يوهان فوك الاستشراقي التزامًا حازمًا بالمنهجيّة الموضوعيّة التي تتجنّب القطيعة الانفعاليّة والإدانة المطلقة، لتؤسّس بدلًا من ذلك تقويمًا معياريًّا يزن بدقّة متناهية الإسهامات التحليليّة القيمة مقابل الفجوات الإبستمولوجيّة والمنهجيّة العميقة. وفي هذا الإطار، لا يسع الباحث المنصف إلّا أن يقرّ بما تمتّع به فوك من قدرات فيلولوجية استثنائية ونباهة لغوية فائقة مكّنته من تسليط ضوء مكثّف على تطور اللغة العربية واشتباكها المعجمي مع اللغات السامية المجاورة. لقد نجح فوك في طرح تساؤلات غير مألوفة حول الجذور الاشتقاقية للعديد من المفردات القرآنية، ما أنتج حقلًا دراسيًا خصبًا حفّز العقل الإسلامي، بشكل غير مباشر، على الخروج من دوائر الترديد التقليديّ والانخراط في تحقيقات معجمية أعمق لإثبات أصالة اللغة القرآنية وثراء بيانها. إن هذه الصرامة في تتبّع مسارات الألفاظ، والاهتمام الدقيق بالمخطوطات، وربط التحوّلات الأسلوبية بمراحل النضج السردي، تشكّل بمجملها رصيدًا معرفيًا لا يمكن إغفاله، وتعدّ أدوات بحثية يمكن للدارس المسلم المعاصر أن يستعيرها ويطوّعها لتجلية أبعاد جديدة في الإعجاز البياني القرآني، شريطة تجريدها من حمولاتها العلمانية المسبقة[١]. ومع ذلك، سرعان ما تتهاوى هذه المزايا التحليليّة الموضعية أمام الخلل الجوهريّ القاتل في المنهج الفوكيّ، والمتمثّل في مزلق «الإسقاط التوراتي» (**Biblical**) (**Cherry-**

[١]- منهج المستشرق يوهان فوك في دراسة علوم القرآن الكريم (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، م. س.

picking) حيث عمد إلى تضخيم الروايات التفسيرية الضعيفة والموضوعة، واستبعاد كتلة الأحاديث المتواترة والقرائن المادية الداعمة لثبات النص، كل ذلك سعيًا لتلفيق صورة «نص مضطرب» يخضع لمقصّات التحرير والتعديل السياسي في عصور لاحقة، مما يفقد مقاربته برمتها شرط النزاهة العلمية، ويحوّلها إلى مسعى أيديولوجي يتستّر برداء الفيلولوجيا[١]. وللوقوف الدقيق على فداحة هذا التجزيء التفكيكي الذي اعتمده فوك، يمكن الاستناد بقوة إلى الرؤية النقدية والتركيبية التي بلورها المفكّر نيل روبنسون (**Neal Robinson**) في سفره المهمّ «اكتشاف القرآن: مقاربة معاصرة لنص محجوب» (**Discoverin the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text**). ينبري روبنسون لتوجيه نقد قاطع للنزعة الاستشراقية التجزيئية التي تفكّك السور القرآنية استنادًا إلى فرضيّات التحليل اللغوي الجاف والتغيّرات الأسلوبيّة المفاجئة التي زعم فوك وأضرابه أنها أدلّة على انعدام الوحدة العضوية للنصّ وتدخّل أيدٍ لاحقة في ترتيبه. وبخلاف هذا التشريح الفيلولوجي القاصر، يعتمد روبنسون مقاربة شمولية كلانية (**Approach Holistic**) تبرهن بعبقرية تحليلية فائقة على التماسك العضوي والنسق البيانيّ المحكَم للسورة القرآنية، ويثبت أن الالتفاتات، وتغيير ضمائر الخطاب، والانتقال بين المواضيع، ليست سوى آليّات بلاغية رفيعة المستوى تهدف إلى تعميق الأثر النفسي والإقناعيّ، ولا علاقة لها بأيّ تجميع عشوائي أو اقتراض تاريخي متأخّر[٢]. إن توظيف أطروحة روبنسون يسدّد ضربة قاصمة لمنهجيّة يوهان فوك المجتزأة، ويؤكّد أن الإخفاق الغربي في فهم القرآن لا يعود إلى تناقض داخلي في النص، بل إلى قصور المناهج الغربية نفسها واعتمادها على عدسات ماديّة قاصرة عن استيعاب المعمار البياني والنظم المعجز الذي يجمع بين التنوّع الدلالي والوحدة الموضوعية المطلقة في كتاب الله.

[١]- منهج المستشرق يوهان فوك في دراسة علوم القرآن الكريم (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، م. س، ص٢٩١.

[2]- Robinson, Neal, Discovering the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text. SCM Press, 1996.

المبحث الخامس: آفاق الدراسات القرآنية: تجاوز السجال نحو حوارية معرفيّة منتجة

تقتضي القراءة الفاحصة للتباينات المنهجيّة بين العقل الاستشراقي الكلاسيكي والمنظومة المعرفية الإسلاميّة ضرورة الانعتاق من أسر الثنائيّات الحدّية القائمة على الرفض المطلق أو التبعيّة العمياء، للعبور نحو فضاء رحب يُعلي من شأن «التأسيس المعرفيّ» الفاعل.

لقد كشفت دراسة إرث يوهان فوك أن الخلل الحقيقيّ لا يكمن في ذات الأدوات البحثية كالتحليل الفيلولوجي أو النقد التاريخي، بل في الموجّهات الفلسفية الوضعية التي صاحبت تلك الأدوات وحوّلتها إلى معاول لتفكيك الوحي وإقصاء غيبيّته، مما يحتّم على الباحث المسلم المعاصر ممارسة «فرز إبستمولوجي» دقيق يختطف التقنية الأكاديميّة من براثن الأدلجة العلمانيّة[١] إن الانتقال من مجرّد الردّ الانفعاليّ السجالي إلى بناء مقاربات إسلاميّة رصينة يتطلّب توظيفًا نقديًا لمكتسبات اللسانيّات الحديثة وتحليل الخطاب، بغية تفكيك السرديّات الاستشراقية من داخلها، وإثبات التماسك العضويّ والبياني للنصّ القرآنيّ بلغة عالمية رصينة تعزّز حضور التراث الإسلامي في المحافل الأكاديمية الدوليّة بعيدًا عن التقوقع أو الذوبان[٢]. وتتعزّز مشروعية هذا الطموح التأسيسي حين ندرك أن الحقل الاستشراقي المعاصر نفسه يشهد مراجعات نقديّة لافتة تتجاوز النزعات التشكيكيّة الراديكاليّة التي طبعت عصر فوك وجولدتسيهر. يتجلّى هذا التحوّل بوضوح في الرؤى المتقدّمة التي طرحها كل من أنجيليكا نويفرت ومايكل سيلز في سفرهما المرجعيّ «الدراسات القرآنية اليوم»، حيث دعيا إلى تخليص البحث القرآني من إرث الاستشراق الجدليّ القديم، والتأكيد على ضرورة مقاربة القرآن بوصفه نصًّا يمتلك «منطقًا داخليًّا» محكمًا وبنية

[١]- منهج المستشرق يوهان فوك في دراسة علوم القرآن الكريم (دراسة تحليلية نقدية مقارنة).

[٢]- م. ن.

أدبيّة ولاهوتيّة فريدة تعكس حيوية الخطاب وتفاعله البلاغي المعقّد مع بيئته، بدلاً من التعامل معه كشظايا تاريخيّة مفكّكة[١].

إن هذا الاعتراف الغربي المتصاعد بالوحدة النصية والمعمارية للقرآن يتقاطع في مساحات واسعة مع المفهوم الإسلامي التراثي للنظم والإعجاز، ويوفّر أرضيّة خصبة لإطلاق حوارية معرفية منتجة، تتيح للعلماء المسلمين استثمار هذه التطوّرات المنهجيّة لرفد الدراسات القرآنية بأدوات تحليليّة معاصرة، مع الاحتفاظ الصارم بالثوابت العقدية المتعلّقة بالتواتر القطعي والمصدر الإلهيّ المتعالي للنص الشريف[٢].

[1]- Neuwirth, Angelika, & Sells, Michael (Eds.), Qurʾanic Studies Today, 2016.

[٢]- منهج المستشرق يوهان فوك في دراسة علوم القرآن الكريم (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، م. س.

الخاتمة والنتائج

أسفرت هذه المقاربة النقدية والمقارنة لمنهج يوهان فوك عن كشف الفجوة الإبستمولوجية العميقة التي تفصل بين العقلانية المادّية الغربية وبين المرجعيّة التأسيسية الإسلاميّة. لقد أثبت البحث أن مهارة فوك الفيلولوجية، رغم عمقها، بقيت أسيرة لافتراضات تاريخانيّة متعسّفة جرّدت النص القرآني من قداسته الوحيانية وحوّلته إلى وثيقة سوسيولوجية تخضع لقوانين التطوّر البشري. إن التقويم الموضوعي لهذا المنجز الاستشراقي يتطلّب وعيًا مزدوجًا يعترف بالفوائد التقنية للتحليل اللغوي الدقيق، ويرفض في الوقت ذاته المصادرات الفلسفيّة التي تصطدم باليقين التواتري للمدونة القرآنيّة.

ـ يتأسّس المنهج الاستشراقي عند يوهان فوك على الفلسفة الوضعية التي تقصي الميتافيزيقا، مما أوقعه في سلسلة من الاستنتاجات التجزيئيّة التي تنفي الوحدة العضوية والربّانية للنص القرآني.

ـ يكمن الصدام المعرفي الجوهري في مصدر الموثوقية؛ حيث يرتكز المنهج الإماميّ الإسلامي على «التواتر القطعي» كحاجز إبستمولوجيّ يمنع أيّ سيولة نصية، في حين يغوص فوك في بحر الشك والترجيحات الاحتماليّة.

ـ مثّل الإسقاط التعسّفي لآليّات نقد العهد القديم على القرآن الكريم خللاً منهجيًّا فاضحًا، حيث تجاهل المستشرقون الفروق الهائلة في آليّات الجمع والضبط والإسناد الشفهي والمكتوب الذي ميّز التجربة الإسلاميّة المبكرة.

ـ يفرض الراهن الأكاديميّ الانتقال السريع من استراتيجيّات السجال التبريريّ إلى «التأسيس المعرفي»، عبر توطين الأدوات اللسانيّة والتاريخيّة الحديثة ضمن إطار عقدي محكم يعزّز فهمنا للقرآن ويحاكي المعايير العلمية العالميّة.

لائحة المصادر والمراجع

١. الكشوان، إسراء كريم عبد الأمير؛ دست رنج، فاطمة، منهج المستشرق يوهان فوك في دراسة علوم القرآن الكريم (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، رسالة جامعية، جامعة أراك، ٢٠٢٥م.

2. Al-Azami, Muhammad Mustafa, The History of the Qur'anic Text: From Revelation to Compilation, 2003.

3. Herbert Berg, The Development of Exegesis in Early Islam, The Authenticity of Muslim Literature from the Formative Period, 1st Edition, Routledge, London, 2000.

4. Neuwirth, Angelika, & Sells, Michael (Eds.), Qur'anic Studies Today, 2016.

5. Reynolds, Gabriel Said (Ed.), The Qur'an in its Historical Context, 2008.

6. Robinson, Neal, Discovering the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text. SCM Press, 1996.